



Blogs مدونات 04/09/2019

الجنرالات يفتكون بالديمقراطية



حكى لي صديق، هو ابن أحد المهاجرين العرب من الشام إلى كندا في خمسينيات القرن العشرين، هرباً من انقلابات الجنرالات في الشرق الأوسط. قائلًا:

جاء مسرعاً إلى جدي "زينب" صارخاً لأنها لا تسمع في أذنيها "طرش" ثقيل: ديري بالك أولاد حارتنا يلعبون في عقل ابنك كي يتطوع في جهاز الأمن العسكري. ردت الجدة واثقة من كلامها: يشهد الله أنني أعرف ابني أكثر منهم جميعاً وإن وجدوا عقلاً في رأسه فليعبوا به على كيفهم.

كلام الجدة هذا يحمل الكثير من الدلالات والحقائق الصريحة. والجدات على العموم صاحبات خبرة ودراية في أمور الدنيا، فقد أبلين البلاء الحسن وخبرن الحياة بطلوها ومرها واكتسبن حكمة وموعظة حسنة يندر أن تخيب.

ولأن ابنها لا يملك عقلاً في رأسه فقد لعب به أولاد حارتنا وذهب في النتيجة النهائية وتطوع في الأمن العسكري. راح مع مرور السنين يتدرج في الرتب العسكرية التي بدأها عريفاً كحال أدولف هتلر وعلي عبد الله صالح والكثير من الشخصيات العسكرية في أنحاء العالم، ثم صار "جنرالاً" في مركز عال يحل ويربط، مع ذلك بقي يزور جدي بين الحين والحين، يدخل إليها والنسر يقف على شاربه الكث، كما يقول، والنسر يلمع مع النجوم والسيوف في "كتافتي" بزته العسكرية الفخمة، ينظر إلى أمه نظرة نسر في أعالي السماء.

وفي ليلة حالكة السواد دخل قمرها في "المحاق" والخلق نيام تدبر الأمر وأمسك صولجان الملك وصار الأمر النهائي في شؤون البلاد والعباد. والجنرالات في العموم يحبون مسك الصولجان، ولو كان عصا تشبه عصا الراعي. وانقطع الجنرال عن زيارة جدي والسؤال عن حالها.

قالت والحسرة تأكل قلبها قبل الرحيل عن الدنيا وأهلها: سيقتل ابني في النهاية لا محال، فأنا أعرف أن لا عقل له.



قُتل الجنرال في النهاية شرّاً قتلة ووضعت جثته على "طراحة" من الإسفنج الصناعي ليتفرج عليها الناس. كما فعلوا تماماً مع العقيد معمر القذافي قائد ثورة الفاتح من أيلول في ليبيا أواخر عام 2011. وصدقت حكمة جدتي.

تبحث العلوم الاجتماعية والسياسية في نمط هذا الحكم التعسفي وتساءل كيف يفكر الجنرال عندما يحكم العباد من القصر الجمهوري؟ وكيف سمحت أعراف المجتمع وتقاليدته أن يتسنى العرش وعمله في الأساس الذي تدرب عليه قيادة الجيوش وخوض المعارك وقتل الأعداء؟ نعم، كل جيوش العالم غايتها قتل الأعداء، هذا عملها، والجنرال يأمر بهذا القتل براً وبحراً وجواً، فهل يستطيع الجنرال قيادة المجتمع والوصول به إلى بر الأمان؟ ما هو مبرر ذلك، هل خلت البلاد من حاكم مدني يفهم في العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية يجلسه الناس بعد انتخابات تعددية ديمقراطية في القصر الجمهوري، وبعد انتهاء فترة حكمه يعود إلى ما كان عليه مدرساً في الجامعة قبل أن يصير رئيساً؟ هل هذا الأمر ممكن؟ أم أنه أصعب مما نتصور في تلك البلاد التي يبحث فيها العباد عن لقمة العيش.

كيف يحتال الجنرال على دساتير الدول كي تسمح له بالحكم؟ من يقف مع الجنرال في طموحه هذا؟ أليس من الأحسن له أن يكون في مكانه الطبيعي يقود قطعات الجيش والفروع الأمنية ومن ثم ينأى في الثكنات العسكرية بدل أن ينأى في القصر الجمهوري، والذي مهما أله، فهو ليس مكانه الطبيعي، ولا يليق بشخصه على كل حال. ومع ذلك يجلس هناك متربعاً مستأنساً بتلك الامتيازات التي يحصل عليها (شهرة، مال، نساء، خمور، حشيش -.. إلخ) ويكون من المستحيل إخراجه من القصر الجمهوري دون سيل من دماء. والعسكر على العموم يحبون إراقة الدماء والنساء والخمور والحشيش واغتصاب الديمقراطية، هم قتلة في نهاية الأمر، ابتليت بهم البشرية من قديم الزمان.

كي نجيب عن هذه الأسئلة الملحة نحتاج إلى الكثير من الحبر والوقت وآلاف الصفحات وإلى دراسة سيرة حياة العشرات أو المئات من الجنرالات التي مرت في التاريخ قديمه وحديثه وحكمت دولاً في الشرق والغرب. ولعل أميركا اللاتينية وأفريقيا من أكثر القارات التي شهدت دولها حكماً عسكرياً في العصر الحديث. ولعل الجمهوريات العربية تُعطينا شواهد عديدة على حكم الجنرالات. ولعل قراءة رواية "ليلة الرئيس الأخيرة" التي تحكي سيرة معمر القذافي للكاتب الجزائري ياسمين خضرا الذي يكتب بالفرنسية تفيدنا في هذا المسار العسير.

من طبيعة الأمور عندما يصل "الجنرال" إلى كرسي الحكم أن يقرب أهله ومعارفه على مبدأ "الأهل أولى بالمعروف" ويُعطي الامتيازات إلى رفاقه في السلاح وبذلك تتحول الدولة في ظله إلى "ثكنة عسكرية" يحكمها كما يشاء تحت سلطة قانون مرعب يخشاه الناس، يقول هذا القانون غير المكتوب: المؤسسة العسكرية متمثلة في الجيش الوطني والأمن الوطني والمخابرات الوطنية والسجون الوطنية هي التي تُدافع عن الشعب وتحمي الوطن من كيد الكائدين والمتربصين - وهي على كل حال الأضخم بين مؤسسات الدولة - نعم، بهذه الروح العسكرية الوطنية ينشأ الأولاد في المدارس وهم يرتدون اللباس الموحد والذي يميل في شكله وألوانه إلى "العسكرة". وترسم الحدود بين الفرد الوطني والفرد الخائن. و"الجنرال" لم يطق صبراً على رؤية وجوه الخونة من أبناء وطنه فيفرض الأحكام العرفية التي تعطل الدستور والقوانين المرعية، ويسجن الخلق في سبيل الصالح العام، أو يعمل بكل الوسائل على طردهم من نعيم الوطن لأنهم لا يستحقون العيش والتمتع بالخير العميم الذي يغدقه الجنرال على شعبه.

تزعه سيرة الرئيس السابق فيأمر بسجنه والتنكيل بأهله وعشيرته، ويقتله إذا لزم الأمر، ويحكم الأفواه التي لا تُمد مسيرته المجيدة ويخرسها بالتي هي أحسن، فيعموم على سطح هذا المستنقع أهل النفاق والفساد والتزلف والرياء من كل الملل والنحل وينتشر الخوف القاتل في كل شارع وزقاق وزاوية، ويعم الرعب قلوب الناس فيمشون "جنب" الحيط ويقولون: سترك يا رب.



<http://souriyati.com>
<https://facebook.com/souriyati.net>
<https://twitter.com/souriyati>

المصدر: العربي الجديد - عبد الرزاق دحنون